واسطة السلوك

« في سياسة الملوك »

هو اسم كتاب نفيس ، لايزال بدوياً مخطوطاً لم يُنشَر بعدُ . توجد منه نسخة في مكتبة (الاسكريال) باسبانيا ، ترجمت الى اللغة الاسبانية بقلم الاستاذ كاصبار مدريانو وطبعها (الترجمة الاسبانية) في سنة ١٨٩٩ م . بمدينة سرقسطة الا انه طبع منها نسخاً قليلة ، سرعان ما نفدت واصبحت نادرة لا تكاد توجد .

وكان المظنون ان النسخة الموجودة في (الاسكريال) هي النسخة الوحيدة من هذا الكتاب . غير اني عثرت اخيراً على نسخة مخطوطة أخرى من هذا الكتاب ، في مكتبة صديقي الفاضل الشيخ الحاج عبد القادر قارمجه في تلمسان (الجزائر) وهي نسخة تقع في مائتين وخمس واربعين صفحة (٢٤٥) طول الواحدة منها ٢٨ سنتيمتراً في عرض ٢٠ سنتيمتراً وفي كل صفحة ١٨ سطراً ولاتنقص كلمات كل سطر عن ١٢ كلمة ولاتزيد عن ١٥ كلمة وقد كتبت هذه النسخة بخط مغربي واضح ، وفيها كثير من الخطإ و التحريف ، بسبب ان الناسخ كان يسرع في نسخها ويمعن في هذه السرعة ، فاضطره ذلك ان يهمل بعض الحروف المعجمة وان يعجم بعض الحروف المهملة او ان يكتب الدال راء او واواً او نحو ذلك ، الا ان ذلك كله لايحول دون قراءتها بسهولة وبلا عناء كبير . ومع ان الكتاب قديم ألف فيمابين سنة ٧٠ وبين ٨٠ من القرن الثامن الهجري فان هذه النسخة التي أصفها قد فُرِغ من نسخها في يوم السبت ٣ جمادي الاولى سنة ١٢٦١ (الف ومائتين وواحد وستين) . وقد كتب الناسخ اسمه في أسفل الصفحة الاخيرة بشكل مبهم لايكاد يبين ، فلم أقرأ منه غير كلمتين لاأدري اولاهما من أخراهما وهما : حسن بن عمار او هي عمار تحريف عمر كما ينطقها العامة في تلمسان اليوم . واني الآن أبحث عن النسخة الاصلية التي أخذت منها هذه النسخة واعلي أجدها قريباً .

اسم الكتاب واسم المؤلف — اما الكتاب فاسمه في هذه النسخة (واسطة السلوك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في سياسة الملوك) وقد ذكره يحيى بن خلدون صاحب (بغية الروّاد في ذكر بني عبدالواد) باسم (نظم السلوك في سياسة الملوك) . واما اسم المؤلف ، فهو السلطان موسى ابوحمّو الثاني أشهر بني زيان ملوك تلمسان في التاريخ . غير ان هذه النسخة التي أصفها لم يُذكر في اولها اسم المؤلف وانما ذكرت بعض اخبار بني زيان وذكرت معها توار يخها يستطيع الباحث ان يعلم منها اسم المؤلف وانه هو موسى بن حمّو مافيه من شك . على ان قاريء هذا الكتاب لا يلبث ان يقرأ فيه هذه القصيدة التي يقول فيها ناظمها وهو مؤلف الكتاب :

(وانا موسى ابو حمّو أصلح للملك ولا يصلح لي)
(فانا للطفل كوالده واسوق الشيخ على مهل)

وهي قصيدة رائعة ملئت حكمة وحُكما .

موضوع الكتاب — هو سياسة الملوك وتدبير الممالك ، ولعل هذا الكتاب هو من خير ما أُلّف الناس في هذا الموضوع . وضعه موسى ابوحمّو هذا لابنه وهو يعظه ويوصيه ويقص عليه تجاربه واختباراته في السياسة والاجتماع . وقد اودع له في هذا الكتاب كل مايحتاج اليه الملوك (اوالخلفاء) الذين يديرون ممالكهم بانفسهم ، ويدبرون فيها كل جليل وحقير . وفي الحق ان هذا كتاب يدل على ان مؤلفه مطلع واسع الاطلاع ، وعالم غزير العلم ومجرب حكيم وسياسي داهية ، كثير الحيل والاخاديع . وهو كتاب يحتاج الى مثله (بالاخص) اولئك الذين يحكمون أممهم وشعوبهم حكماً افرادياً ديموقراطياً . لا بل يحتاج اليه كل حاكم ، طاغية كان امعادلاً . لا بل يحتاج اليه كل عالم من علماء التاريخ والاجتماع فهو صورة واضحة لنفسية موسى ابي حمّو الثاني الزياني ، ومافي هذه النفسية الملوكية الكبرى من وداعة وتواضع ومافيها من عظمة وجبروت . وهو ايضاً صورة واضحة للمجتمع الاسلامي في الجزائر او في المغرب كله لذلك العهد ، ولما في هذا المجتمع يومئذ من رغبات ومطامح وما فيه من شهوات ومطامع .

وتشعر ، وانت تقرأ هذا الكتاب بان مؤلفه يقتطعه من نفسه اقتطاعاً . وتراه يضع بين يديك آراء ناضجة قوية في السياسة والاجتماع وهي وليدة التجربة والاختبار . ولا تكاد تجد في الكتاب كله رأياً واحداً بني على الفرض والتقدير دون الخبرة والعيان . ومن هنا جاءت قيمة هذا الكتاب ، ومن هنا كان كتاباً علمياً ، وان موضوعه في سياسة الملوك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وليس عجيباً ان يكون هذا الكتاب مبنياً على الواقع الذي لا ريب فيه ، فقد وضعه صاحبه لابنه وولي عهده واجتهد ان يكون له هذا الكتاب دستوراً قويماً ، يقيه شر مايكون في تدبير الملك وسياسة الامة من اغلاط وعثرات . ولكن اباتاشفين الثاني هذا كان ولداً عاقاً لاخير فيه ، وما كان اهلاً للملك . فقد جازى اباه (اباحمو) جزاء سنمار استبطأ حياة ابيه فتعجل الامر وثار عليه فقتله ، وقتل معه كثيراً من رجال الدولة وعلماء الدين . ثم لم يتمتع بالملك بعد ابيه غير اربع سنوات قضاها بين الفتن والاضطرابات .

أسلوب الكتاب — وأسلوب الكتاب في جملته هو أسلوب القرن الثامن الذي كان يعيش فيه المؤلف . وهو أسلوب كان شائعاً بين الادباء عموماً وأدباء المغرب خصوصاً ، منذ القرن السابع الى ماقبل هذه النهضة الادبية الحاضرة ، ولا يزال كثير من أدباء مراكش (المغرب الأقصى) يكتبون به الى هذا اليوم .

واصحاب هذا الاسلوب في الغالب لايستعملون الكلمة في موضعها ولا يؤدون المعنى باللفظ الذي وضع له (لاحقيقة ولا مجازاً) ويكثرون من الاسجاع الباردة التي يتكلفونها ولو افضى بهم تكلفها الى إضاعة المعنى . وقد لا يزيدون السجعة (الفاصلة) بتمامها لشيء الا ثرثرة وفضولاً . وابو حمو هذا ، كذلك في هذا الكتاب لايجيد القول ولا يضع الكلم في مواضعه الا اذا ترك السجع وارسل نفسه على سجيتها وجاء كلامه عفواً ، وحينئذ يكون كلامه « سهلاً ممتنعاً » منسجماً صادقاً لاعيب فيه .

على ان ابا حمو هذا قد وُفق في أسلوب هذا الكتاب الى حد بعيد من التوفيق ، فهو لا يكتفي ببيان الرأي من آرائه التي ولدتها تجاربه واختباراته ، حتى يزيد على ذلك قصة صغيرة او يضرب لك مثلاً من الأمثال يقنعك كل الاقناع من حيث تشعر اومن حيث لاتشعر بصحة الرأي الذي يراه و يذهب اليه .

تبويب الكتاب — وقد جعل المؤلف كتابه هذا ديباجةً واربعة ابواب . فاما الديباجة فقد ذكر فيها السبب الذي حمله على تأليف الكتاب ، فقال فيها : « ... أما بعد ، فانه لما كانت الاولاد ، قطع الاكباد ، وعماد الظهور ، وشفاء الصدور ، وثمار القلوب ، وجلاء الكروب ، ودُرّة كل زين ، وقرّة كل عين ، ووصلة الانساب ، وسلسلة التناسل والاعتناء (كذا بالاصل) وورثة الآباء ... وسر الحياة ، وحياة العظام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الرفات . يرغب فيهم الانبياء ، و يعتدّ بهم الاولياء ، قال الله عزّ وجلّ مخبراً عن نبيه زكريا اذ دعاه : « ... فهب لي من لدنك وليـاً يرثني ، و يرث من آل يعقوب ، واجعله ربّ رضيا ... » — وجب (وهـذا جواب لما) ان تكون لهم الآباء كالسماء الظليلة ، والشمس المنيرة ، والسحب المُنيلة . يتحفونهم بكل أدب وفضيلة ، و يمنحونهم كل فائدة جليـلة . وخير الآباء للابنـاء من لم تدعه المودّة (يريد العطف الابوي) للتفريط في الحقوق (يعني ما يجب على الاب من تربية الابن وتهـذيبه) ، وخير الابناء للآباء من لم يدعه التقصير الى العقوق . قال صلى الله عليه وسلم : الاولاد من رياحين الجنة . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه وكان محباً في ولده سالم :

يلومونني في سالم وألومهم وجلدة بين العين والانف سالم

وقال معلّي الطائي :

وانمـا اولادنا بيننـا اكبادنا تمشي على الارض

ان هبت الريح على بعضهم تمتنع العين من الغمض

فرأينا اولى ما يتحف به ولي عهدنا ووارث مجدنا ، والخليفة ان شاء الله من بعدنا ، وصايا حكمية ، وسياسة علمية مما تختص به الملوك ، وتنتظم به امورهم انتظـام السلوك . ولذلك سمينا هـذا الكتاب بواسطة السلوك ، في سياسة الملوك ، ليكون اسمه موافق مسماه ، ولفظه يطابق معناه » . هذه هي الديباجة نقلتهـا لك الا بعض فواصل منها . ومنها تعلم الغرض الذي حمل المؤلف على وضع هذا الكتاب .

واما أربعة الابواب فقد قال عنها المؤلف هكذا : « .. وبوّبناه تبويباً على اربعة ابواب :

الباب الاول في الوصايا والآداب والحكم المرشدة الى الصواب .

الباب الثاني في قواعد الملك وأركانه ، وما يحتاج اليه الملك في قوام سلطانه .

الباب الثالث في الاوصاف التي هي (نظام) الملك وكماله ، وبهجته وجماله .

الباب الرابع في الفراسة ، وهي خاتمة السياسة » . ثم شرع يفصل كل باب الى فصول ، و ينوعه الى انواع .

ولكن هذا التنويع والتفصيل والتبويب ، كل ذلك لاقيمة له في الكتاب ، فالكتاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كله باب واحد متصل الاطراف شديد الانصال . او الابواب كلها في قواعد الملك واركانه وفيما ليس للملك منه بد .

وفي الفصل التالي نعود ان شاء الله الى ذكر النقط المهمة من كل باب ومن كل فصل من ابواب الكتاب وفصوله . حتى يعلم القارئ ان الكتاب كله باب واحد في تدبير الملك لا اعتبار فيه لهذا التقسيم الذي قسمه المؤلف .

***

وقد عزمت انا وصديقي الاستاذ عبدالقادر محداد على نشر هذا الكتاب متى حصلنا على نسخة بالفوتوغراف من نسخة (الاسكوريال) وقد عملنا اكثر مايجب عمله في هذا السبيل والله الموفق المستعان .

تلمسان (الجزائر) : محمد السعيد الزاهري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net